بسم الله الرحمن الرحيم

حين يسقط الاستعلاء

من القادسية إلى اليوم

الحمد لله ربّ العالمين، يُعِزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء، بيده الملك وهو على كل شيء قدير، أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل في قصص الأولين عبرةً للمتفكرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أن من أعظم ما يُحتاج إليه في هذا الزمان: فهمُ التاريخ فهمًا صحيحًا، لا يُبنى على التعصّب، ولا يُقرأ بانتقاء، بل يُنظر فيه إلى سنن الله التي لا تتبدل ولا تتخلف.

قوة فارس.

لقد كانت فارس قبل الإسلام من أعظم دول

الأرض، إمبراطوريةً مترامية الأطراف، يحكمها ملوك آلِ ساسان، وكان من أشهرهم كسرى أَبرُويز، الذي بلغ بملكه مبلغًا عظيمًا، وكانت الفرس أشدَّ ضراوة وبأسًا من الروم، بل كانت الفرسُ -وقت صدر الإسلام- أوسعَ وأكبرَ من بلاد الروم، فكانت الفرس قاهرةً للروم، عاديةً عليها.

الملحمة الأولى التي خلدها القرآن.

ثم إنه وقعت ملحمةٌ عظيمةٌ بين الفرس والروم، حتى إن الفرس بقوتها وصلت إلى القسطنطينية (إسطنبول اليوم) أكبرِ معاقلِ الروم، قال ابن كثير:" غزى مَلِك الفرس الرومَ بنفسه فقهره وكسره، حتى لم يبق مع ملك الروم سوى مدينة قسطنطينية، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه" [1]، وقد سجّل القرآن هذه المرحلة في قوله تعالى:﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ فكانت الغلبة أولًا لفارس، ثم ردّ الله الكرة للروم، لتبقى سنّة التداول قائمة، لا تثبت لدولة، ولا تدوم لملك.

(١) تفسير ابن كثير، بتصرف يسير (٦/٣٠٢).

ازدراء العرب.

ولكن-عباد الله- لم تكن قوةُ فارس قوةَ سلاحٍ فقط، بل كانت معها نزعة استعلاءٍ عميقة، إذ كانوا يرون أنفسهم أهلَ الحضارة والمدنية، وينظرون إلى العرب نظرة ازدراء، يعدّونهم أهل بادية، لا ملك لهم ولا نظام، فلما جاء الإسلام، جاءهم بما لم يخطر لهم على بال؛ جاءهم من العرب الذين كانوا يستخفون بهم، فإذا بالعرب يحملون رسالة الله، ويقيمون ميزانًا جديدًا: (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). وهنا كانت الصدمة الكبرى!

أول رسالة إلى كسرى.

فلما كتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى كسرى أبرُويز يدعوه إلى الإسلام، لم يقابل الدعوة بإنصاف، بل قابلها بكبر، فلما قرأ وكان فيها: "من محمد بن عبدالله إلى كسرى عظيم فارس أسلم تسلم" غضب، وقال: "عبدٌ من عبادي يبدأ باسمه قبل اسمي" ولم يكتف هذا الملك بهذا

القول الشنيع وإنما أرسل رسالة عاجلة إلى باذان عاملِه على اليمن في صنعاء (وكان للفرس سطوةٌ على اليمن منذ ذلك الوقت) يقول له فيها ابعث برجلين جلدين قويين إلى الحجاز فليأتياني بهذا الرجل، ثم مزّق كتاب رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: "مزّق الله ملكه" (١).

بداية زعزعة الملك.

فكانت كلمةً لم تلبث أن تحققت؛ إذ اضطرب مُلك فارس، وقُتل كسرى على يد ابنه والنبي ﷺ حي يرزق، ثم قتل هذا الابن ثمانية عشر من إخوته لتوطيد ملكه، فبدأ دعوة النبي ﷺ بالتحقق من السنة السابعة للهجرة، وتتابعت الفتن والانقسامات، حتى تهاوت أركان الدولة.

ثم جاءت خلافة الفاروق عمرَ بنِ الخطاب -رضي الله عنه- فكان الفتح الذي غيّر وجه التاريخ.

---

(١) رواه البخاري.

في القادسية (ت:١٤) حيث هُزم جيش فارس، وقُتل قائدهم رستم، وفي المدائن (ت:١٦)، حيث سقطت عاصمة الأكاسرة، وفرّ يزدجرد الثالث، ثم في نهاوند (ت:٢١) التي سُمّيت فتح الفتوح، حيث انكسرت شوكة فارس نهائيًا، وسقط مُلكٌ دام قرونًا، كل ذلك في عهد عمرَ بنِ الخطاب.

فلم يكن ذلك مجرد انتصارٍ عسكري، بل كان سقوط منظومةٍ كاملة: منظومة الاستعلاء، ومنظومة التكبر العرقي، حيث أطفأ عمر نار المجوس، في انتصار لم يعرف له التاريخ مثيلًا، في سقوط حضارة امتدت لأربعةِ آلاف سنة في ثلاثِ معاركَ فحسب.

ثم امتد الفتح في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فاستُكملت أطراف فارس، وخمد الثورات التي فيها، وقضى على ما بقي من الدولة الساسانية، واستقرّ الأمر للمسلمين، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وصار الفرس جزءًا من هذه الأمة.

ليس كل الفرس فرس.

فخرج منهم علماء كبار: كأبي حنيفة، والبخاري، ومسلم، وسيبويه، فدلّ ذلك على أن الإسلام إذا دخل القلوب، أذهب العصبيات، وجعل الناس أمةً واحدة.

لكن، فكما أن بعض الفرس دخلوا في الإسلام عن قناعة ورغبة، فإن بعضهم دخل فيه خوفًا من قوة المسلمين، ولذلك لم تختفِ آثار الماضي كلها؛ بل بقي في نفوس بعضهم شيء من مرارة الهزيمة، وظهر ذلك في بعض الكلام والأدب، حيث نجد عباراتٍ فيها استعلاءٌ على العرب أو تذكير بالثأر القديم.

وقد ظهر هذا المعنى أيضًا في بعض النتاج الأدبي، ومن أشهره كتاب الشاهنامة للشاعر الفردوسي الفارسي في القرن الرابع، الذي يُعد من أعظم كتب الفرس في تمجيد تاريخهم القديم. فرغم أن مؤلفه يُنسب إلى الإسلام، إلا أن كتابه مليء بتعظيم ملوك فارس قبل الإسلام، وإحياء روح التعصب القومي، وتصوير الفرس في مقام العظمة مقابل

غيرهم، مما جعله عند كثيرين مثالًا على النزعة الشعوبية التي تُعلي شأن الفرس على حساب غيرهم.

بل إن هذا التوجه القومي لم يقتصر على الأدب القديم، بل استمر في عصور متأخرة؛ ففي الدولة البهلوية صدر فرمان يدعو إلى تنقية اللغة الفارسية من الكلمات العربية، رغم أن نسبة كبيرة من مفرداتها ذات أصل عربي، تُقدَّر عند بعض الباحثين بنحو نصف اللغة أو أكثر. والمفارقة أن هذا الفرمان نفسَه كُتب بنسبة كبيرة من كلمات عربية، مما يكشف مدى عمقِ تأثير العربية في الفارسية، ويُظهر التناقض بين الدعوة والواقع.

بين الدولة الأموية والدولة العباسية.

وفي زمن الدولة الأموية، كانت الدولة تعتمد على العرب بشكل كبير، ولم تُشرك الفرس في مراكز الحكم، فبقي بعضهم يشعر بالتهميش، وزاد هذا الشعور من الاحتقان الذي في نفوسهم. لكن لما جاءت الدولة العباسية

تغيّر الوضع، فأدخل العباسيون الفرسَ في الحكم، وأعطتهم مناصب كبيرة، فصار لهم تأثير واضح في الدولة.

ومن أبرز من ظهر في ذلك الوقت أبو مسلم الخراساني الفارسي، وهو الذي قاد الثورة على بني أمية، وقد نُقل عنه عباراتٌ قصيرة تُظهر ما في نفسه، مثل قوله في بعض المعارك ضد بني أمية: "هذه بالقادسية، وهذه بالمدائن، وهذه بنهاوند"، وكأنه يربط قتاله بوقائع قديمة ويستحضر هزائم الفرس السابقة. فهذه الكلمات تدل على أن الأمر لم يكن مجرد صراع سياسي، بل يفهم من كلامه شيء من الحقد القديم.

ومع قوة نفوذه واتساع سلطته، بدأ الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يخاف من تمرد أبي مسلم الخراساني وخروجه عليه، خاصة أنه صار صاحب كلمة وجيش ونفوذ في خراسان، فاستدعاه بحيلة، ثم أمر بقتله، فتخلّص منه قبل أن يتحول إلى خطر على الدولة.

ومع مرور الزمن، تحوّل هذا الشعور عند بعضهم إلى نزعة قومية، تتذكر هزائم القادسية والمدائن كأنها جرح لم يندمل، حتى صار اسم عمر عند بعضهم رمزًا لهذه الهزيمة، ومصدرًا للألم في ذاكرتهم، وليس الكلام هنا عن شعبٍ بعينه، ولا عن قومٍ دون قوم، وإنما عن سنّةٍ تتكرر في كل زمان: إذا دخل الإيمان القلوب صفّاها وجمعها، وإذا غلبت العصبية فرّقت الناس، وأعادت الأخطاء نفسها من جديد.

الحقد الصفوي.

ومع مرور الوقت، ولما ضعفت الوحدة بين المسلمين، رجعت هذه المشاعر القديمة عند بعض الناس، من حقدٍ دفين، واعتزازٍ قومي، واستحضارٍ لمرارة الهزيمة لكن بأشكال جديدة: أحيانًا تظهر في السياسة، وأحيانًا في الخلافات المذهبية، وأحيانًا في محاولات السيطرة والنفوذ.

ووصل هذا الاتجاه إلى أقصاه في زمن إسماعيل

الصفوي في القرن العاشر، حيث تحوّل من مجرد شعور إلى مشروع دولة، يقوم على التفرقة، ويُفرَض بالقوة، وتُعاد فيه صياغة الهوية بطريقة تُبعد الناس عن بعضهم. وكانت بلاد فارس قبل قيام الدولة الصفوية يغلب عليها المذهبُ السني، خاصة الشافعي والحنفي، وقد استمر ذلك قرونًا طويلة، وخرج منها علماء كبار في مختلف العلوم الإسلامية.

لكن مع قيام الدولة الصفوية، ومع ما كان في ذلك الوقت من ضعفٍ نسبي في أطراف الدولة العثمانية، فُرض التحول المذهبي بالقوة، وسعت الدولة الجديدة إلى نشر المذهب الاثني عشري في عموم البلاد، عبر السلطة والقهر، ولم يكن الأمر مجرد اختلاف فقهي، بل صاحبه خطاب حاد تجاه الصحابة وبعض رموز الإسلام الأولى، مما عمّق الانقسام داخل الأمة، وأحدث قطيعة واضحة بين ما كان عليه أهل المنطقة من قبل، وما فُرض عليهم لاحقًا، ومن ذلك ما يُروى في شأن ملكهم الأخير

يزدجرد الثالث، الذي انهزم في زمن عمر بن الخطاب، والذي مات مجوسيًا، حيث صور في كتاب بحار الأنوار بأنه ممن لم تمسه النار؛ لأن جمجمته قابلت عليًا[1].

ثم امتدّ أثر ذلك إلى عصورٍ لاحقة، حتى وصل إلى واقعنا المعاصر، حيث تسعى بعض القوى إلى توسيع نفوذها في العالم العربي بوسائل متعددة، في صورةٍ تعيد إنتاج التنافس القديم بأدوات جديدة، وأعادوا الكراهية للعرب في نفوسهم حتى قال شاعرهم المقرب من النظام: "يا إله العرب اجعل سكني في قعر جهنم، ولكن بشرط أن لا أسمع صوت العرب"[2].

عباد الله:

إن العبرة من هذا كلِّه واضحة: أن القوة لا تدوم، وأن الكِبْر سبب السقوط، وأن الله ناصر دينِه ولو بعد حين، وأن المعركة الحقيقية ليست بين عربي وفارسي من

---

(١) بحار الأنوار، للمجلسي (٤١/٢١٤)

(٢) وذلك في عام ٢٠١١، للشاعر مصطفى بيكوبا.

حيث النسب، بل بين إيمانٍ يجمع وعصبيةٍ تفرق، بين حقٍّ يرفع وبغيٍّ يهدم.

فإذا غلب الإسلام، سقطت الأحقاد، وإذا ضعُف، عادت الجراح القديمة في ثيابٍ جديدة.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود: ١٠٢ **فاتقوا الله عباد الله، واعتبروا بمن مضى، ولا تغتروا بقوةٍ ولا سلطان، فإن الأيام دول، والعاقبة للمتقين.**

وكُتب في ٢٩ / ١٠ / ١٤٤٧ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد